الباب الخامس

الوعي السياسي في ' مسرح المجتمع'

الباب الخامس

الوعي السياسي في "مسرح المجتمع"

لقد ذكرنا في بداية الفصل الماضي أن لتوفيق الحكيم ملاحظة دقيقة في القضايا المختلفه السائدة في مصر حينذاك من الإجتماعية و السياسية و النسوية و قد مست الحاجة أن تعالج المشاكل بأقلام الشباب في تلك الفترة الحزينة ؛ فكذلك يقوم الحكيم أن يصوّر الحالة السياسية كما يصوّر الحالة الإجتماعية بإختلاف أنواعها .

و هنا أصل إلي النقطة بالنسبة إلي الحكيم أنّه إذا تحدّثنا عن توفيق الحكيم ذاته و السياسة فنجده أنّه فنّان يكتب عن السياسة و

للسياسة ، و ليس مفكّراً سياسياً يكتب في السياسة . و في تاريخ الفكر العالمي نماذج توضح هذا الفارق بين تصوّر الفنّان العالِم و تصوّر الكاتب المفكّر .[1]

ففي الحقيقة لم يكن للحكيم موقف سياسيٌّ ، و لكننا سنجد له موقفا فنّياً من السياسة . فلم يعُدْ كاتب إلي ماضي مصر، يمتص بقلبه عصارة روحها، مثلما عاد توفيق الحكيم . و لم يتخطّ كاتب حاضر مصر و وقائعها و تراث له بريق المستقبل كما تراث لتوفيق الحكيم . فالحكيم هو الذي كتب في عام ١٩٤٥م :

> إنّ الفساد جاء من عاصفة جائحة لمبادئ شوهت و أسئ فهمها، هبت فجأة علي هذا البلد ،فقلبته كما رأينا شر منقلب.

---

[1] مجلة *الهلال* ، عدد خاص ، فبراير ١٩٦٨ ، ص ١٩٧ .

فالأمر أجل و أخطر من أن يعالج به العلاجات الموضعية ، انما هي عاصفة أخري جائحة من المبادئ الصحيحة السليمة ينبغي أن تهب فتقيم ما وقع و ترم ما انهدم ، و لكن المعضلة هي: كيف و متي تأتي العاصفة المباركة ؟[2]

و قد طرح الحكيم في مسرحه القضايا الوطنية السياسية كذلك فبدأ من قضية الإحتلال البريطاني لمصر في *'الضيف الثقيل'* عام ١٩١٩ م و حتي قضية فلسطين التي كتب عنها مسرحيته *'ميلاد بطل'* عام ١٩٤٨ م من إحدى المسرحيات من مجموعة "مسرح المجتمع" ، ثم مسرحيته "مجلس العدل" عام ١٩٧٠ م التي عرض فيها بموقف

---

[2] مجلة *الهلال* ، عدد خاص ، فبراير ١٩٦٨ ، ص ١٩٦ .

الولايات المتّحدة و المجتمع الدولي الجائر من حق الشعب الفلسطيني المهضوم . صحيح أنّه وقع في أواخر حياته في شرك التصوّرات الخاطئة ، أو بالأحْري الأوهام الزائفة ، حول قضية الصلح مع العدو الصيهوني البغيض ، و شارك في بعض الفصول التطبيع المخففة ، و لكنّه لم يدخل أياً من تلك الآراء إلي ساحة نصّه الإبداعي ، و أبقاها محصورة في نطاق التصريحات أو الشذرات السياسية المباشرة . لكنّ أهمّ القضايا السياسية التي شغلته علي امتداد نصوصه المسرحية العديدة هي مشكلة الحكم التي تناولها في *'نهر الجنون'* سنة ١٩٣٥ م ، ثمّ عاد إليها في "براكسا أو مشكلة الحكم" سنة ١٩٣٩ م و *'السلطان الحائر'* سنة ١٩٦٠ م و *'شمس النهار'* سنة ١٩٦٤ م و غيرها من المسرحيات . فلقد كان

الحكيم في الواقع واعياً بالسياسة من البداية و خاصة منذ بدايات مسيرته الأدبية الجادّة بعد عودته من فرنسا .[3]

و يشهد الحكيم المأساة و الأزمة السائدة في بلاده حتي يكون مستعداً بنفسه ، و يستمرّ علي لهجته الساخرة في كل ما يكتب عن حاضر السياسة ، رافعاً عصاه ، شاهراً قلمه ، ساحباً حماره ، سابحاً بين الماضي السابق ، حائماً حول المستقبل المجهول ، يداعبه الأمل أحياناً في الإصلاح ، يتوقّف دائماً أمام لغز السياسة في مصر ، كما وقف أمام لغز الزمن ، و يقول :

نعم ، إنّ المشاعر الكبري لن تكون
عظيمة بقوّتها .... و لكنّ بمدّتها .

---

[3] مجلة *إبداع* ، العدد التاسع ، سبتمبر ١٩٨٧ ، ص ١٧ .

ما من شكّ عندي في أنّ اكثر رجال السياسة و الحكم قد خالجتهم يوماً أعظم مشاعر التضحية والبطولة، و لكنّ إلي أيّ وقت عاشت في قلوبهم هذه المشاعر ؟ و إلي أي مدى احتفظوا بقوّة هذه العواطف ؟ فلم يلينوا لمفريات المنصب؟ و لم يذعنوا لشهوات النفس ، و لم يخضعوا لمطالب العيش، و لم يجرفوا في تيار النعمة و الرفاهية ؟ ..

4

و نحن نعلم أنّ توفيق الحكيم كان قد اتّجه إلي كتابة المسرحية. و هو طالب في التاسعة عشر من عمره ، و كتب مسرحيات فلبعضها هدف

---

[4] مجلة *الهلال* ، عدد خاص ، فبراير ١٩٦٨ ، ص ١٩٧ .

سياسي نضالي كمسرحية *'الضيف الثقيل'* التي عرّض فيها الإحتلال البريطاني ، و بعضها له هدف اجتماعي كمسرحية *'المرأة الجديدة'* التي أوضح فيها موقفه حينذاك من قضية السفور، و قد كان أمراً خطيراً يجب الحذر منه آنئذٍ . كان لطابع تلك الفترة السياسية والإجتماعية و الفنية أثر في اتّجاه الحكيم في هذه الوجهة . ثم تغيّر الحال بالنسبة للحكيم، بعد أن سافر إلي فرنسا و اتّصل بالمسرح الأوربي عن قرب . و لهذا نراه بعد عودته منها سنة ١٩٢٨ م انّه يتّجه إلي كتابة مسرحية من نوع آخر ، و هو ما سمّاه *بالمسرح الذهني* ، بالإضافة إلي تقديم بعض المسرحيات الأخري ذات الطابع الإجتماعي أو السياسي أو النفسي ، و أفرد مسرحيته السياسية نشرها مستقلة سنة ١٩٣٩ م بإسم *'براكسا أو مشكلة الحكم'* . ثم يقدم لنا الحكيم عاملاً آخر متعلقاً بالسياسة

السائدة وقتئذٍ و هو ما كان من تحوّل الحياة المصرية بعد الحرب العالمية الأولي و بعد إنتهاء ثورة ١٩ ؛ إلي لون من التغيّر الهادئ و التطور الطبيعي الذي يتيح لبعض المفكّرين أن يبعد نوعاً عن التفكير في المسائل السياسية و الإجتماعية إلي التفكير في الإنسان و مشكلاته الثابتة في كل زمان .

فكذلك نحن نجد توفيق الحكيم يهجو الفساد في السّياسة و يهجو تبديلَ الحكومة المفاجئ بتعيين الرّجل المحبوب لوظيفة الخدمة المدنية كما يبدو في مسرحيته *'بين يوم و ليلة'* من مجموعة *' مسرح المجتمع '* . و في هذه المسرحية التي هي ~~الأخيرة~~ عالج الحكيم أخلاق المجتمع الفاسدة . و الآن سنحاول لتحليل وعيه السياسي في مسرحياته واحداً فواحداً في الصفحات القادمة .

أعمال حرّة :

و هي قصة تمثيلية بفصل واحدٍ كتبها توفيق الحكيم مستمدَاً من وحي الآداة الحكومية و الهدف المرتكز فيها هو الهجاء اللاذع لخدع الحكومة البسائدة وقتئذٍ و سوءِ استعمالها ، ففي هذه المسرحية يختار توفيق الحكيم موقفاً هزليّاً ممتازاً، يستغله ليقول من خلاله شيئاً جادّاً كل الجدّية .

ثمّ في المسرحية نجد شركة تسمّى 'شركة التعهّدات و التوريدات المتّحدة' تقوم بتوريد المهمّات للحكومة ، و في هذه الشركة يعمل طائفة من الموظّفين مساءً ، أمّا في النهار فإنّهم يعملون أنفسهم في خدمة الحكومة . ففي

المساء يوردون البضائع للحكومة نيابة عن الشركة ، و في الصباح القادم يستلمون هذه البضائع ذاتها من الشركة نيابة عن الحكومة .

ثمّ يفاجئهم رئيسهم في الحكومة ذات يوم مساءً ، فيظنون أنّ أمرهم قد افتضح ، فهم في نظر القانون المالي و في نظر انفسهم مجرمون ، إلاّ واحداً منهم يقول في منطق لا يقاوم :

القانون المالي لا يسمح بالشغل و يسمح باللعب ؟ لعب الطاولة علي المقاهي من الساعة الرابعة بعد الظهر إلي منتصف الليل ؟ [5]

انّه لا يرى فيما يفعل جريمة . علي العكس انّه انّما يُشتغل في أوقات الفراغ بالأعمال الحرّة !

---

[5] د/ على الراعى ، *توفيق الحكيم:فنان الفرجة و فنان الفكر* ، ص ٦٥ .

و يغادر الموظّفون المزدوجو الشخصية هؤلاء مقرّ الشركة-رغما من منطق زميلهم-خوفاً من كبسة الرئيس الحكومي . غير أنّ الرئيس ذاته يتعرّض لكبسة من نوع مخالفٍ. تهجم زوجته علي المكان لتتحقق مما يقال لها عن غرامياته وسهراته الحمراء. و فعلاً تجده في صحبة غانية مغنية ، من النوع الذي يبيع كل شيئ .

و يتأزّم الموقف و توشك الأمور أن تندفع إلي خطر ، و لكنّ الإنفراج يحدث بساطة . فيهدي .مدير الشركة - إلي زوجة الرئيس الحكومي سواراً من ذهب ، علي زعم أنّه عينات ، و أنّه - علي كل حال - سيخصم ثمنه مما يدين به زوجها الشركة من مجهود بوصفه مستشاراً مرتقباً لها. فتقبل الزوجة الهدية دون مقاومة، وينقلب الوضع أمامها بالنسبة لزوجها ، فيصبح في التوّ رجلاً مضحياً . يستغل وقت فراغه - هو الآخر - في

عمله الحرّ . و تنصرف الزوجة ، فترن ضحكة الغانية المغنية و هي تقول :

عمله الحرّ ؟ ! حرّ جدّاً ![6]

اي نعم حرّ جدّاً .. في الإستغلال ، و النصب علي الحكومة و علي الناس . الادانة الشاملة موجودة هنا ، و كذالك شبكة الفساد التي تلف في خيوطها من كل شيئ و كل الناس -الرؤساء والمرؤوسين والحكومة و القطاع الخاص ، الزوجة "الشريفة" و الغانية الخارجة عن الشرف .

فيصوّر الفنان توفيق الحكيم كل هذه و يوعيّ الشعب عنها بطريقته اللذيذة المحببة ، مستخدماً شخصيات منتزعة من واقع حياة مصر المر

---

[6] د/ على الراعى ، *توفيق الحكيم:فنان الفرجة و فنان الفكر* ، ص ٦٦ .

عرف كيف يموت :

و هي من إحدى المسرحيات التي

كتبها توفيق الحكيم بفصل واحدٍ و هي من وحي الصحافة و السياسة و نشرها في ضمن ***'مسرح المجتمع'*** سنة ١٩٥٠م. و هي أيضاً من أعمال الحكيم المسرحية التي كتبها علي طريق الكاريكاتورية[7] و سخر بها مجتمع مصر السياسي .

تبدأ المسرحية بحوار يبدأ في وقت الليل بين باشا و رئيس التحرير لصحيفة تصدر كل صباح في مكتبه . و يصوّر الحكيم في هذه المسرحية أنّ ذلك الباشا كان سياسيّاً هامّاً في وقته و يرغب هو أن يمتدّ نفسه شهرة سريعة بعد

---

[7] فنّ الكاريكاتور : هى طريقة فى الرسم تبالغ، على نحو ساخر فى إظهار خصائص شخص أو شيئ أو نقائصه . المو د الحديث, ص ١٩٢ .

تقاعده من السياسة المعاصرة ، و يتّخذ طريقة رديئة لها ، حتي كان من هدفه ان ينتحر في محاولة يائسة لكي تجعل له أخبار العظيمة القيمة الصحفية . فيضع قنبلة وقتية تحت مقعده و قد أخبر بذلك محرّراً من تلك الصحيفة الرئيسية بإنتحاره المعهود . كما جاء في النصّ :

باشا : وفاتي! ...

رئيس التحرير: وفاتك! خُبرسيُكتب في عشرة أسطر أو عشرين.. و ينشر في صفحة الوفيات العادية أو في صفحة أخرى ثانوية ... لا تؤاخذني علي هذه الصراحة ... إنما قصدت أنْ أعارض فكرتك . و أبين أن وفاتك – لا سمع الله – لن تكون خبراً صحفياً بالمعنى المطلوب !..

باشا : أعرف ذلك أيضاً ... و لكن وفاتي لن تكون تافهة ؛ كما تتصوّر! . إنها ستكون وفاة سياسية نثيرة ! ...

رئيس التحرير: كيف ذلك ؟ ...

باشا : قنبلة ستنفجر ، و تودي بحياتي ! ...[8]

و كان الصحفي راغباً و متأثّراً لنجاحه الشخصي فقط. و لكن من سوء الحظ لهما لقد كبَى الأمر و مات السياسي ساقطاً في حفرة خارج منزله لا بموت رائع كان في خياله .[9]

لقد وجدنا فيما سبق عدداً من مسرحيات تنّوفيق الحكيم الإجتماعية التي عالج فيها مشكلة بذاتها ، شغلته منذ فجر حياته الأدبية ، و ظلت تشغلُه علي نحو حادّ؛ و لاحظنا انّه قد استمرّ بوجه عام بكتابة المسرحيات الإجتماعية ، وبخاصة في فترة عمله صحفيّاً بجريدة 'أخبار اليوم' ، و لكنّه في الواقع لم يقتصر علي المسرحيات الإجتماعية فقط بل كتب أيضاً

---

[8] توفيق الحكيم : ***مسرح المجتمع***، ص ٢٥٣ .

[9] Badawi, M.M.: *Modern Arabic Drama in Egypt,p. 51.*

المسرحيات السياسية مثل "براكسا أو مشكلة الحكم" و غيرها كما كتب المسرحيات النفسية و الريفية كما قلت سابقا .

فقبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م كان مسرح الحياة عند الحكيم موجهاً نحو النقد ، و لكنّ نقْده للحياة لم يكن في يوم من الأيّام نقداً جريئاً عميقاً ينفذ إلي أسس الفساد ، بل كان مقصوراً علي بعض النواحي السطحية التي لا تصل إلي الأسس . ذلك لسبب جوهري: و هو أن الحكيم قد كان دائماً ممن يؤثرون السلامة و يتجنبون تحمّل مسؤلية الرائ الحاسم؛ كما أنّنا لا نعرف له فلسفة إجتماعية مجدّدة . فهو ينتمي بتفكيره إلي الطبقة البرجوازية المحافظة التي تحرص علي رتابة الحياة و تفضل الإستقرار علي التمرّد و التجديد . فهو مثلاً في مسرحية *'عمارة المعلّم كندوز'* يصوّرها لنا إحتيال المعلّم كندوز الجزّار علي

تزويج بناته بكتابة عمارته لكل منهنّ حتى تتزوّج. ثم إسترداداها منها بعد ذلك لكي يكتبها لأختها حتى تتزوج هي الأخرى، و في النهاية يجتمع أصهاره في ضجة صاخبة مضحكة ينكشف فيها الموقف . و توفيق الحكيم يصف هذه المسرحية في فهرست *'مسرح المجتمع'* بأنّها من أخلاق الحرب . و لكن المشكلة التي تعالجها مشكلة مزمنة في بلاد مصر حينئذٍ و ليست مقصورة علي أخلاق الحرب ، لأنّها ترجع إلي فساد عميق كان متأصلاً في حياة مصر الإقتصادية و الإجتماعية.[10]

و أمّا بعد ثورة ٢٣ هذه فقد رأيناتوفيق الحكيم يصدر لأوّل مرّة في مسرحيات الحياة التي كتبها و هي *''الأيدي الناعمة'* و *''الصفقة'* ، عن الفلسفة الإشتراكية ، و يجب هنا

---

[10] د/ محمّد مندور , *مسرح توفيق الحكيم* ، ص ٣١ .

أن نلاحظ أنّ توفيق الحكيم لم يكن من روّاد هذه الفلسفة بل كان من التابعين لها أو علي الأقلّ من المتأثّرين بها .

و أيّاً ما يكون الأمر فنحن نعتقد أنّ مسرحيّتي *''الأيدي الناعمة'* و *''الصفقة'*

هما من خير ما كتب الحكيم مسرحياته المختلفة.

ففي مسرحية *''الأيدي الناعمة'*

التي كتبها الحكيم بأربعة فصول يبدأ الحوار علي شاطئ النيل قرب قصر العيني بين البرنس فريد - رجل في الخامسة و الأربعين - و الدكتور علي حمودة - شابّ لم يبلغ الثلاثين و دكتور من كلية الآداب . و الأشخاص الآخرُ فيها هم جيهان ومرفت و سالم و بائع البسبوسة و شعبان و الست و البك وعبد السلام و غيرهم .

فالمسرحية توضح معنيً كبيراً من معاني ثورة مصر الإشتراكية السياسية بل معنيً من معاني التطوّر الإنساني العام في العصر الحديث و هو أنّه لم يعدَ في الحياة الحديثة مجال لمن ساهم الرئيس جمال عبد الناصر و المتعطلين بالثورة الذين كانوا يعيشون علي الإقطاعيات التي نهبها أجدادهم من الشعب و حتكروا ثرواتها و سخروا في العمل بها أيدي الشعب الخمسة المحرومة ، كما تسجّل تفاهة العلوم الجدليةَ العقيمة التي كان يبدد فيها أعمارهم عدد من الشبان، مثل الدكتور علي علي حموره المذكور الذي حصل علي الدكتوراه عن بحث 'حتي' جعله يعرف من المسرحية باسم الدكتور حتي ، و يجد نفسه بين *'الأيدي الناعمة'* بعد الثورة، و انّ الحكيم عالج في هذه المسرحية اؤلئك المترفين الذين اضطرّتهم الثورة إلي أن ينفضوا عنها غبار الكسل والإستعلاء ليعملوا

كما يعمل جميع العاديين من الناس لكسب قوّتهم الشريف .

و أمّا مسرحية "*الصفقة*" لتوفيق الحكيم فتصوّر الحالة التي كانت سائدة في الريف ، يعني اذا كانت '*الأيدي الناعمة*' قد عالجت مشكلة نتجت عن الثورة بالنسبة لفئة من الناس و رسمت حلاً لهذه المشكلة فإنّ مسرحية '*الصفقة*' قد عالجت مشكلة اجتماعية كانت سائدة قبل الثورة في مصر .

و تفوّقت مسرحية *الصفقة* ، لأنها لم تصور تلك الحالة تصويرا آليا سطحيا كما تفعل الصحافة أحيانا أو كما يفعل بعض المؤرخين. بل صورتها تصويراً إنسانيا عميقا و هو الذي يستحق الإبراز في هذه المسرحية و قبل أي شيئ آخر. و يقول الدكتور محمد مندور عن حدوث تلك الحالة و

عن سبب كتابة توفيق الحكيم مسرحيته *''الصفقة'* في تلك الآوانة :

لقد عرفنا و و عرفت الإنسانية كلها و سجل التاريخ مدى ما كان عليه الفلاح المصري من ظلم و استغلال نتيجة لحرمانه من الأرض. و لكننا لم نكن قد كشفنا بعد عن العوامل النفسية المتراكمة التي زادت هذه الحالة استفحالا و تأصيلاً .

نعم إن ظلم الإقطاعيين و تأصلهم و جشعهم و ترفهم المنحل كان سببا في خلق هذه الحالة. و لكنه لم يكن السبب الوحيد. بل أضيف إليه سبب آخر لا يقل قسوة و هو استخذاء الفلاحين انفسهم و سيطرة الأوهام عليهم و هلعهم البالغ من قسوة الإقطاعيين و بطشهم. و هذا هو العنصر الإنساني الهام الذي جعله توفيق الحكيم من المحركات الإنسانية لمأساة *'الصفقة'* التي صاغها في صورة بكائية.[11]

---

[11] د/ محمّد مندور , *مسرح توفيق الحكيم* ، ص ١٢٢ .

فتقوم مأساة *''الصفقة'* على قصة قطعة أرض أرادت إحدى الشركات أن تبيعها. فجمع أهل القرية التي تقع فيها تلك القطعة المال اللازم لشرائها و توزيعها بينهم و بين ما هم يعدون العدة لإستكمال الصفقة و إجراءاتها و إذا بهم يسمعون عن وصول اقطاعى الناحية 'حامد بك ابو راجية' إلى محطة القرية. فيتسلط عليهم الوهم فورا بأن هذا الإقطاعى قد حضر ليعاين الأرض قبل ان يذهب إلى الشركة و يستحوذ عليها. و ذلك بالرغم من أن الإقطاعى لم يكن له اي علم بهذه الصفقة و لا تفكير لشرائها، و انما اتى لبعض شؤونه الخاصة. و يتشاور الفلاحون في الطريقة التي يتخلصون بها من منافسة هذا الطاغية. و يعلن احدهم استعداده لقتله. و لكنهم لا يأخذون بهذا الرأى خوفا على حياتهم. و ينتهي بهم الأمر إلى جمع مبلغ من المال- ما لهم العصبي- ليقدمه للإقطاعي الطاغية فدية لصفقة

الإرض، و لكن الإقطاعي يتظاهر أول الأمر بالتعفف و عزة النفس و الإستعلاء، و لكنه لا يكاد يعلم بوجود الصفقة. و يسبب تقديم المال إليه حتى يكشر لهم عن نابه و يأبي التسليم لهم الصفقة حتى بعد أن زادوا له في الفدية. و يساومهم في أعز ما يملكون و هو عرضهم. فيطلب الفتاة القروية الجميلة مبروكة التي لمهابين أهل القرية بحجة استخدامها خادمة لابنه الصغير. و هنا يجتمع أهل القرية و يتشاورون في هذه الفدية الجديدة. و بخاصة أن مبروكة كانت مخطوبة لمحروس- أحد شبان القرية. و لكن قوة الشعب و ايجابيته و استيقاظ وعيه لا تلبث أن تظهر في شخصية الفتاة مبرزكة التي تقرر الذهاب مع الإقطاعي إلى قصره و هي واثقة من نفسها و من قدرتها على ان ترد كيد الطاغية في نحره و أن تشغله عن الصفقة مدة اليومين اللازمين لإنجاز إجراءاتها. و كان لها ما ارادت فانها لم تكد

تستقر بقصر الإقطاعى حُتى تظاهرت بأنها مصابة بمرض الكوليرا. و نجحت الحيلة و حاصر بوليس الصحة القصر مدة يومين لا يخرج منه أحد و لا يدخل إليه أحد حتى ركب الوهم عقل 'حامد بك أبو راجية' الذي رأى أن يتخلص من الفتاة المريضة خوفا على حياته و حياة أسرته، فعادت مبروكة إلى قريتها عود الفاتحين الغزاة. و تختم المسرحية بإعلان نبأ انتهاء الصفقة لفلاحي القرية ثم زواج مبروكة من محروس.[12]

و المسرخية الأخري لتوفيق الحكيم التي تتأثّرت مباشرة بالثورة الشعبية لمصر هي *'صاحبة الجلاّبة'* ذات خمسة فصول . و هي مهاجمة سطحية علي طِمع فاروق الملك المعزول و حبّه للمال. و كان الموضوع الثانوي فيها هو ان يبيّن الفساد العامَ الذي يعدّ إلي عهد الملك وان

---

[12] د/ محمّد مندور , *مسرح توفيق الحكيم* ، ص ١٢٣.

يصوّر الشذوذية الإقتصادية و اختلاسهم اللاأخلاقية الذي تتعهّد بآباء الفتاة الذين يزخرفهم و يمنحهم الملك جوائز مختلفة لنكاحه المعهود ببناتهم .

****